المقاهى وأثرها فى المجتمع المصرى

للأستاذ أحمد حلمى على

أستاذ المواد الاجتماعية بالمدارس الثانوية

يعيبنا الكثيرون من الأجانب بكثرة ما فى مصر من مقاه، ويذهب بعضهم إلى أنها سبب من الأسباب الرئيسية فى قلة الانسجام والتعاطف والترابط بين أعضاء الأسرة المصرية، وأنها علة ما يشوب المجتمع المصرى من تراخ وتواكل وشحوب وإعراض عن العلوم والفنون والآداب، هذا إلى ما فى الإقبال عليها من مضيعة للوقت والجهد والمال.

وفى الحق إن المقاهى لم تلق فى مملكة من الممالك مثل ما تلقاه فى مصر من رواج، بل ليس فى العالم بلد انتشرت فيه انتشارها فى مصر، وأثرت فى أهله تأثيرها فى أهل مصر، وهى الآن آخذة فى الازدياد فى المدن والمراكز والقرى، وقد يزيد عددها فى ميدان واحد من ميادين القاهرة على العشرة كما هو الحال فى ميدان السيدة زينب مثلا.

وعلى القهوة يقبل الطالب بعد الانتهاء من مدرسته، والموظف بعد أن يطل على بيته، والعامل بعد أن يخلع عنه ملابس العمل، والتاجر والزارع والغنى والفقير والصغير والكبير ليقضوا كل ليلة ساعات فى لعب النرد أو غيرة أو فى ثرثرة ضررها أكثر من نفعها والكل لاه عن واجبه وعن بيته وولده، بل عن نفسه وما تحتاج اليه من تثقيف وتهذيب.

البيت مطعم أو فندق يزوره صاحبه لماما ليلقى نظرة سريعة على الزوج والولد، وقد يكون هذا فى زيارة عقيمة أو فى سبات عميق، فلا اتصال ولا تفاهم بين الأسرة وربها، ولا اهتمام بالبيت وشئونه وما يجب أن يسوده من محبة وألفة وصفاء، وأن يتوافر فيه من كتب ومجلات ومذياع وصور فنية، ووسائل للتسلية والترفيه، فهل من عجب بعد ذلك أن تسأم الزوجة حياة العزلة التى تحياها حبيسة بيتها، وأن يفسد الأبناء وينهار البيت على صاحبه وهو فى القهوة لاه يقتل الوقت أو على الأصح يقتل نفسه وذويه ! ! . . .

إذا قضى الرجل أوقات فراغه فى القهوة فمتى يعنى بصحته ورياضة بدنه ؟ ومتى يزامل زوجه ويشرف على تربية أولاده وتثقيفهم ؟ ومتى يدبر شئونه ويزيد فى معلوماته ويقرأ ويطلع ؟

كثيرون منا يجهلون أشياء لا يغتفر الجهل بها ، وقليلون هم الذين يستطيعون أن يفاخروا بثقافة عالية واطلاع واسع فى الفنون والآداب . حقا لقد كثر حملة الشهادات ولكن الشهادات ليست هى كل شىء ، وإنما هى مجرد سلم أو باب يؤدى إلى ساحات رحبة زاخرة بالجهود الانسانية المتنوعة .

قليلون هم الذين يستطيعون أن يميزوا أنواع الأشجار المختلفة المنتشرة فى متنزهاتنا ، وأقل منهم من يعرف الجارونيا أو الجاردينيا أو الداليا أو الأراولة أو السنراريا أو حتى النرجس والقرنفل مع أننا شعب زراعى ، الزراعة قوام حياته ، ومصدر ثروته وهدفه فيما ينشد من رقى وإصلاح . ثم بآيات من الجمال الطبعى والفنى الرائع فلا نحس بها ولا نفهم منها شيئا ، ولا نقف لحظة نمعن النظر فيما يشيع فى بلادنا وفى وادينا من جمال يقدره الأجنبى قدره ويسعى إليه من أقصى الأرض ، مأخوذا بسحره ، دهشا بكل ما تقع عليه عينه من عجائب مصر القديمة والحديثة .

وقليلون جدا هم الذين ضربوا بسهم وافر فى الفنون والآداب مع أن بين ظهرانينا من الشبان الأجانب من لو قارناهم بشبابنا لتبين الفرق شاسعا ولأدركنا مدى ما ينقصنا لنرتفع إلى مستواهم .

ترى الشاب الفرنسى مثلا قد قرأ فى أوقات فراغه مؤلفات أئمة الأدب الأوربى ، وتراه يعرف رامبران وميكل انجيلو وباخ وموزار و بتهوفن وفردى وغيرهم من أبطال الرسم والتصوير والموسيقا . هذا إلى إلمامه العجيب بالكثير مما يتصل بالأوبرا والمسرح والسياسة والاجتماع ، ثم تراه فوق ذلك متميزا بشخصية خاصة ، وميول خاصة ، وآراء خاصة ، له نظرياته فى الحياة وله فلسفته ، وله مبادئ يستريح إليها ، كما أن له مثله العليا ، يهتدى بهديها و يترسم خطاها .

أما نحن فلم تترك لنا القهوة وقتا نستكمل فيه ثقافتنا ، طغت على أوقات فراغنا فحرمتنا الاستمتاع بكل ما هو طريف سواء فى الأدب أو الفن . لذلك يشكو أدباؤنا وكتابنا ندرة القراء ، ويندب أهل الفن من ممثلين ومطربين ورسامين ومصورين حظهم ، وتعج المقاهى بالألوف ممن يقتلون الوقت فى لهو ومزاح كأنما العمر كله : ديوان فى الصباح ، وسهر الليالى بين الخلان والأقداح . و بما أن العلوم والفنون هى أصدق مقياس لرقى الأمم ، فلن نصل إلى ما نبتغيه لبلادنا من سؤدد ومجد إلا أن يتغير الحال غير الحال .

وجدير بنا أن نسرع الى معالجة هذا الداء قبل أن يستفحل شره ... فعلينا أن ننظم أوقات فراغنا وأن نستثمرها فيما يعود علينا وعلى ذوينا بالنفع ، وأن نقبل على الأندية الرياضية فنقوى اجسامنا ، وعلى الحقول والمتنزهات العامة فنستمتع ، ومعنا أولادنا واخواننا ، بالهواء النقى الخالص

وبجمال الطبيعة وسحرها ، ثم تزور المكتبات العامة فتزود بالمعلومات الشائقة . وتتهذب طباعنا ، ويرتفع مستوانا الخلقي والثقافي . كل ذلك بعد أن نكون قد نظمنا بيوتنا — كل على قدر طاقته — وأعددنا فيها وسائل الترفية والتثقيف ، وجعلناها صالحة لاستقبال الرصفاء والأصدقاء، وليس يضيرنا أن نكشف للناس عن رقة حالنا أوفقرنا وانما الذى يضيرنا أن نترك البيت فى حاجة ماسة الى عنايتنا واهتمامنا والى كل ما نتقاضاه من أجر ، وننفق فى سخاء على ملاهينا ومقاهينا ، وقد يندفع البعض فى حب الظهور الكاذب القاصم ، الى درجة تدعو الى العجب ، أو على الأصح الى السخرية .

إننا إن نظمنا حياتنا وبيتنا وفراغنا ولهونا نهض بالأسرة نهضة لا شك فيها ، وتتوثق روابط المحبة بين الزوج وزوجه ، وبين الأب وبنيه ، ويزداد تعاونهم على الحياة ، ويسودهم البشر والسرور ، فيتهافت الجميع على البيت حيث ترفرف السعادة والهناءة ، وحيث يجد كل عضو من أعضاء الأسرة العطف والحنان والسلية وغذاء النفس والروح ، وعندئذ يرقى المجتمع المصرى وتتوطد دعائمه على أرفع الأسس وأسماها ، وتتوافر لدينا طبقة عالية من الرجال — نحن فى مسيس الحاجة اليهم — يتميزون بشجاعة الرأى والقلب ، ويدركون وعورة الطريق ويكافحون بصبر وجلد زوابع الحياة ، ويتبادلون فى مهارة قيادة السفينة الى مرفئها الأمين .

ولعل وزارة الشؤون الاجتماعية تولى مشكلة المقاهى نصيبا من عنايتها ، فلا تقصر جهودها على محاربة الحانات ودور الميسر ، بل تضع من القيود التشريعية أو المالية ما يخفف من انتشار هذه المقاهى ، بحيث لا يتبقى منها إلا القليل الضرورى ، اللازم للنزلاء والأجانب ، وأرباب المصالح العاجلة ، وفى الوقت نفسه تشجع على فتح أندية رياضية وثقافية وتعاونية ، ومكتبات عامة فى كل قسم من أقسام القاهرة والاسكندرية ، وفى كل مديرية أو مركز من مراكز المملكة المصرية كما هو الحال فى سائر الدول المتمدينة .

وإنها لخطوة موفقة تلك التى خطتها الوزارة فى سبيل إنشاء الوحدات الاجتماعية والعلاجية ومراكز النشاط الاجتماعى فى المدن والقرى ، كما يسرنا كثيرا أن نشير مغتبطين إلى ما رصدته الوزارة فى ميزانية هذا العام من مال ولو قليل لينفق فى تأسيس الأندية ومساكن العمال وغيرها من وجوه الإصلاح الاجتماعى الأخرى .

والأمل كبير فى أن يقضى التعليم عند تعميمه على نقط الضعف فى مجتمعنا المصرى ، وأن يتضاءل شأن المقاهى فى مصر ، تلك الدور التى تشغل الناس عن أنفسهم وأزواجهم وعن زينة الحياة الدنيا والآخرة .

أحمد حلمى على